

النظام الخائف

بقلم الدكتور إبراهيم الغريب

كندا في ١٦ / ٨ / ٢٠٠١

إذا كان النظام اللبناني يعتقد، أو يريد أن يصدّق، أنه يستطيع أن يحولّ غضبة الرأي العام اللبناني، كي لا نقول العالمي، ضد الممارسات القمعية التي واجه بها رجاله المواطنين، فاسمحوا لنا ألا نكذب على أنفسنا.

لأن الذي يعيش واقع لبنان اليوم، أو الذي يتابع ما يجري على الساحة اللبنانية، يتوقّع كأيّ مراقب، أن تستنهض الأحداث فكر الأحرار لاتخاذ موقف من انتهاك الحريات العامة. فالقيم المطلقة لا تحتمل أيّ تفسير أو تأويل. ولا حلول وسط فيها، ولا تسويات! فأنت حر أو مقيد، سيّد أو عبد، مستقل أو محتل، ولا يمكن أن تكون الإثنين معاً، ولا يمكن أن تكون بينَ بين. والحريات العامة المكفولة في الدستور اللبناني، رغم خروج النظام على الدستور في أكثر من واقعة، هي نبض الثوابت اللبنانية. فأبي خرق لها، من أي كان، يعرّض المجتمع اللبناني لحالات غير طبيعية، يُرغم عليها، وقد تؤديّ إلى التمرد! نعم التمرد. تتعجّبون؟ لا.

بكل بساطة نحن قادمون، إذ الظاهر أن النظام اللبناني مصرّ على التنازلي عن مسائل السيادة والتي فيها ضمنا الحريات العامة، على حالة تمرد، ولن تكون كما يريد النظام أن يصورها "مؤامرة" أو وقفا على فئة معيّنة من اللبنانيين، بل على كافة الأحرار في بيروت والجبل والتمن وكسروان والشمال والجنوب والبقاع.

إن الديمقراطية والحريات العامة هي علة استمرار الوجود اللبناني، وخاصة في هذه الأيام التي أسقط فيها طاقم الحكم اللبناني كل الممارسات الدستورية، وتصرف على شاكلة حُماته، ضاربا عرض الحائط حتى بالمؤسسات، قافزا فوق السلطات الدستورية لمجلس الوزراء، فارضا رفع الأصابع على صنائعه في مجلس النواب، مستغلا أدواته التي تراوحت بين وزير لا حجم وطني له، وقاضٍ مسيس، ومصالحيين يتقاضون أجورا لقاء أتعاب.

إن دولة هذا نظامها لا يمكن أن يكون شعبها حريصا عليها وعلى مشروعها، وعلى احترام رئيسها الذي لم يصن، كما هو مفترض، دستورها وهو المؤتمن عليه!

من هنا، وفي غمرة فرح المصالحة الوطنية التي عاشتها البلاد في أثناء زيارة عبطة البطيرك
الماروني مار بطرس نصرالله صفير إلى جزيين والجبل والمختارة، لم نلاحظ صورة واحدة لرئيس
الدولة في معارض الصور المنشورة على جدران الشوارع وفي الساحات العامة في بيروت
وجزيين والمختارة مما يدلّ، إذا ما دلّ، على مدى تجاهل الشعب، بكل فئاته، لمصادقية هذا
النظام وطاقمه.

ألا يحق للبنانيين، الواعين لحقيقة انتمائهم الوطني والقومي، أن يطالبوا بانسحاب الجيش السوري
من لبنان، ونحن صرنا نرى في وجوده معطّلاً للقيم الديمقراطية والأخلاقية، فارضاً تفرغها من
محتوياتها الدستورية، منذ أن تعطلّ دور هذا الجيش في الساحة اللبنانية؟.

أيّ مهمة للجيش السوري في لبنان الآن غير الإمعان في تفكيك المؤسسات الدستورية، والتحريض
على التفرقة، وتجيش العملاء، وحماية المنتفعين، وتسليح المخربين؟

نحن نحترم النظام السوري في تدبير شؤونه، ولا علاقة لنا فيما يطبخه في منزله، ولكن بالمقابل
نحن نصرّ على أن يحترم النظام السوري شعبنا، وعلى أن يتركنا نتدبّر أمرنا بأنفسنا، وعلى أن
نمارس حريتنا من خلال ديمقراطيتنا. فليس من شأننا إذا عزم النظام السوري على تحرير
الجولان أم لا، فهذا شأنه. أما نحن فعازمون على تحرير لبنان، نرفض أن تكبل إرادتنا سلاسل
نظام الحزب الواحد في دمشق، نرفض أن نقف على حواجز أمنية غير حواجز جيشنا، نرفض أن
يفرض العسكر السوري مشيئته وإرادته على أهلنا في ديارنا.

فهل الجيش السوري دنسٌ أم رَجسٌ؟

في بلاده لا يهمني أن أعرف. أما عندنا، في لبنان، فنعم.

إن وجود الجيش السوري في لبنان، والنظام الذي يحميه في بيروت، هو استباحة لحرية وكرامة
اللبنانيين، على عكس يقظة شباب لبنان واندفاعهم لتحرير إنسانهم وأرضهم من ديكتاتورية النظام
والعسكر.

فإذا كان كل ما قام به هذا النظام في الأيام الراهنة من اعتقالات، وهذه المرة في وضح النهار،
أي "على عينك يا تاجر" حسب أوامر الوزير الياس المر، هو لوقف "مؤامرة" أو "محاولة" لإحداث
شرخ داخلي في مؤسسات الدولة؟ فهذا دليل كاف على أن هذا النظام غير واثق بشعبه، وبالتالي
غير منبثق عنه، يخاف على تركيبته من أن تتفجر من الداخل وتفجّره معها.

وأضعف الأنظمة وأشرسها هي الأنظمة الخائفة

فلا عجب، إذن، إذا ما أقدمت الدولة بالإنقضاض على الشعب، وعلى انتهاك الحريات، وعلى اعتقال الأحرار، وعلى امتهان الكرامات، وعلى فبركة التهم.

بعد الإنتفاضة الشعبية الرائعة في غمرة المصالحة العامة، والتي لم تقتصر على فئة واحدة من الناس، كما تريد البيانات الرسمية أن تصوّرَها لتبرّر اعتقالها للأحرار الذين كانت كل جريمتهم أنهم أطلقوا شعارات وهتافات ورفعوا يافطات تطالب بانسحاب الجيش السوري من لبنان، لا بدّ من التساؤل عما إذا كان هذا النظام حقا حريصا على الأمن والاستقرار والوحدة الوطنية، فأين كان يوم انطلقت "تظاهرة البلطات"؟ وأين كان عندما عقد الشيخ صبحي الطفيلي مؤتمرا صحافيا علنيا، وهو المطلوب للعدالة بمذكرة توقيف؟ وأين هو من الظهور اليومي لـ "أبو العينين" كبير عسكري "فتح" في لبنان على شاشات التلفزة، وهو المحكوم بالإعدام؟

أين هو هذا النظام من الممارسات التي تقوم بها جماعات معينة باغتيال مواطنين وتدمير مقتنياتهم او ممتلكاتهم؟ وباختصار أين هو هذا النظام من الحالة الأمنية العامة في جنوب لبنان؟ على هذا النظام أن يعي أنه لن يكون باستطاعته تخريب اللحمة الشعبية للدفاع عن حرياتنا المقدسة، والتي لا تتجسّد فقط بانسحاب الجيش السوري من لبنان، إنما في استعادة استقلالنا وسيادتنا وقرارنا الحر، والحفاظ على الحريات العام والنظام الديمقراطي في البلاد.